

رسالة القرآن الكريم

آية الله عبادة جواد آملی

الحوزة العلمية - قم

تناول الكاتب دراسة جوانب من القرآن الكريم معتمداً فيه على روايات العترة الطاهرة لأهل بيت النبي (ص)، ويركز الكاتب على أنّ القرآن في أي جانب منه لا ينفصل عن معرفة دقيقة لأهل البيت، وعنوان المقال «رسالة القرآن الكريم» أي إيلاغ الشيء الذي يرفع الإنسان الكامل بتلقيه إلى منزلة الرسالة السامية، ويؤكد صاحب المقال أنّ رسالة كلّ نبي هي تلقي وحيه التشريعي و معرفة رسالته منوطة بتلقيه عنه وحيه التشريعي، فإذا رسالة النبي - ولاسيما خاتم الأنبياء - ثقيلة للغاية.

وقد ورد في هذا المقال «أنّ العلة الغائية لكل رسالة تكون و بقدر الدرجة الوجودية لمبدئها الفاعلي و بقدر وجود مبدئها الصوري، و بقدر مبدئها القابلي».

و يورد الكاتب تعليلاً لأفضلية رسالة خاتم الأنبياء (ص)، وإن كان من الواجب على المؤمنين أن يؤمنوا برسالة الله أجمعين، فعليهم أن يؤمنوا بأفضلية خاتم الأنبياء (ص) على سائر الرسل (ع)، وإن بدا تفاضل بين رسالة الأنبياء و كتبهم فهو يعود إلى أنّ الدين الإسلامي هو أدقّ الأديان السماوية؛ و بما أنّ الدين جاء لتهديب القسم الثابت من الإنسانية فلا يطرأ عليه تغيير، لأنّ الفطرة الإنسانية التي هي موضوع تنمية الدين «لا تبدل» و إن شوهد على مرّ العصور اختلاف طفيف في رسالة الأنبياء ذلك يعود إلى الشرعة و المنهاج لا إلى ما يكون ثابتاً في الدين.

وأخيراً يقع المقال في مقدّمة و فصول ستّة:

رسالة القرآن في الهداية، في المعرفة، في المعاشرة، في المعيشة، في السياسة و في الثقافة.

ولا ينفصلون عن القرآن في أية مرحلة من مراحل كمال الوجود، ولن ينفصل عنهم في أي مقام من المقامات الوجودية. و إن كان في القرآن كمال تفتقده العترة الطاهرة (ع) أو كان كمال في العترة الطاهرة لا يحتويه القرآن فلا بدّ من انفصال هذين الوزنين الوزنين اضطراراً، و هو ما يردّه نصّ النبي الأكرم المتواتر أبد

إنّ أفضل معرف لشرح أوصاف القرآن الكريم هو القرآن المجيد نفسه. و اذا ما شوهد وصف للقرآن في أحاديث العترة الطاهرة (ع) فإنّه بالاستناد إلى القرآن نفسه أيضاً، ولكن الاستئنان منه يقع علي عاتق صنوه، أي الثقل الأصغر أي أهل بيت الرسول (ص)، والذين هم بدورهم القرآن الناطق،

الآبدن.

وما يهمنّا حالياً هو رسالة القرآن الكريم، أي ابلاغ الشيء الذي يرفع الانسان الكامل بتلقيه إلى منزلة الرسالة السامية، ذلك أن رسالة كل نبي هي تلقي وحيه التشريعي التي ستكون نص الابلاغ وجوهر الرسالة، ومعرفة رسالة كل نبي منوطة بمعرفة وحيه التشريعي. إذ إن نزول كل وحي يتناسب مع استيعاب وجود ذلك الانسان السامي. ويمكن ادراك وتمييز أنواع الوحي بعضها عن بعض بتفاوت الأنبياء: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾^(١) و تميزهم: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(٢) ذلك أنه وإن اختلف الوحي فالهدف مشترك. ولكن أنواع الوحي تختلف في السعة والضيق وليست متماثلة في اللحن والعمق.

وبناء على هذا فإن أكمل الناس يتلقى أكمل الوحي. وهو يملك مُهر النبوة، بسبب شمول رسالته واستمرارها، ويحمل دائماً علامة ختم النبوة هذه، وهو يشعر بثقل مسؤولية مهر النبوة والرسالة الختمية التي أنزلت على المجتمعات البشرية على مرّ العصور: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾^(٣)، فرسالته ليست للحاضر والمستقبل بل لابد أن تكون ميزاناً قوياً لكل ما جاء به الرسل السابقون وليس هذا في حدود التصديق المحض بل في حد الرئاسة والهيمنة والادارة والمحافظة الكاملة، كي يتم صيانة ما بقي من سوء التحريف ولغو المحدثين. وليشرح كل مازال من الخواطر أو لم يفسر تفسيراً صحيحاً. ولتحفظ سلسلة الرسائل بقيادة أفضلها ألا وهو القرآن، إذ أن سلسلة الرسل محفوظة بارشاد قائدهم: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾^(٤).

إنّ العلة الغائية لكل رسالة تكون بقدر الدرجة الوجودية لمبدئها الفاعلي، أي رسالة المرسل، وبقدر وجود مبدئها الصوري أي محتوى الرسالة وعصارة مضمونها، وبقدر سعة مبدئها القابلي، أي الروح المجردة للانسان الكامل التي تتقبلها. ومع أن جميع الرسائل السماوية متضمنة لعظمة المبادئ الأربعة المذكورة، ولكن سيتبين بعد التحليل النهائي

أن هذه الرسالة الإلهية الأخيرة لا تماثلها أية رسالة أخرى، وستبقى مزية آخر رسالة محفوظة في جميع المبادئ الأربعة على كل الرسائل السابقة.

أما فيما يتعلق بالمبدأ الفاعلي فمع أن الله تعالى مبدأ جميع الرسائل غير أن الله يظهر في كل رسالة باسم خاص من الأسماء الحسنی الإلهية. وبما أن هذه الأسماء ليست متماثلة، فلن يكون المبدأ الفاعلي للرسالات متساوياً أيضاً في جميع الحالات. ذلك أن الرسالة الصادرة من الاسم العظيم ليست ماثلة للرسالة المنبثقة من الاسم الأعظم، لأن الاسم العظيم لا يساوي الاسم الأعظم، أما بالنسبة للمبدأ الصوري أي محتوى الرسالة فكما أشرنا الآن فإن مضمون الأمر الذي يوجه من الاسم الأعظم أفضل من محتوى الأمر الذي يصدر من الاسم غير الأعظم.

وفيما يتعلق بالمبدأ القابلي أي الروح المجردة للانسان الكامل، التي هي مستقر الوحي الإلهي، فإن الرسالة التي يتلقاها أكمل الناس، أكمل من أية رسالة يتلقاها انسان آخر، أي الإسلام الأصيل هو دين الله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٥)، وهو ما تلقاه جميع الرسل الإلهيين وأبلغوا الأمم به، ولا شك في تفاوت مراتبه في البطون والعمق وكذلك تعالي درجاته في الصعود والرقى.

أما بالنسبة للمبدأ الغائي، أي الباعث النهائي - وهدفه الوجودي، فلما كان بمقدار المبادئ السابقة وهي في أوج كمالها. فالمبدأ الغائي لآخر رسالة يكون في ذروة الكمال، ولا يتيسر للصالحين السالكين أفضل منه. وإلا فلن يكون آخر دين. لأنّ سنّة الحق التي لا تتغير ولا تبدل هي أن توصل كل موهبة إلى الفعل ولا ترضى بجرمان أي مجتمع.

ومن هنا يمكن ادراك العبارة التي وردت في الدعاء السابع والعشرين من رجب الأصب الذي هو ذكرى بعثة خاتم الأنبياء: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِالتَّجَلِّيِ الْأَعْظَمِ...»^(٦)، ذلك أنه وإن كان المتكلم يتجلى في كلامه كما ورد في نهج البلاغة: «فَتَجَلَّى لَهُمْ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا مُرَادَهُ»^(٧)، إلا أن جميع التجليات ليست متماثلة، وأكملها ما نزل على قلب

أكمل الرسل: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾^(٨).

والنقطة المهمة التي لا تخلو الإشارة إليها من فائدة في هذا البحث أنّ المؤمنين وإن كان من الواجب عليهم الايمان بجميع الأنبياء وألا يفرّقوا بينهم ﴿لا نفرّق بين أحد من رسله﴾^(٩)، ﴿والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرّقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً﴾^(١٠). إلا أنّ عدم التفضيل هذا يتعلّق بأصل الرسالة ومتن النبوة، وليس بدرجتها، وإلا كان من الضروري الايمان بالدرجة الخاصة لكل منها كما يجب الايمان بأصلها. وذلك للتمييز بين أولي العزم وبين غير أولي العزم، وبالتالي تفضيل خاتم الأنبياء (ص) على غيره وفي النتيجة يتبيّن الأفضل من غير الأفضل وهكذا يتضح فضل رسالة خاتم الأنبياء (ص) على رسائل الآخرين و تنكشف مسئولية حفظها واطاعتها وتعميمها وتعميقها.

ولا يمكن الفصل بين دراسة هدف القرآن وبين التحقيق حول أهداف سائر الكتب السماوية لأنّها نزلت جميعها لتعليم الانسان وتزكيته، وموضوع رسالتها قيادة البشر. وليست حقيقة البشر نشأة غيب مجردة تامّة كبعض الملائكة ولا تشبه الحوادث الطبيعية كالنبات حيث هي مادية صرفة. ولا هي مجردة ومادية معاً حيث إنّ كثرتها حقيقة ووحدتها اعتبارية بل هي وحدة حقيقية منبسطة ذات شؤون كثيرة. وهي تدبير جميع الشؤون الادراكية والتحريرية، وقد اختزن في أعماق جوهر روحها الفطرة التوحيدية التي لا تتبدّل. وارتبطت رحاب وجودها بالطبيعة السیالة.

ولما كان حيّز تربية الوحي السماوي هي حقيقة الانسان وهو واقع البشر الذي أشير اليه عامة، لذلك فإنّ دين الله سبحانه هو الدين الاسلامي الخالص ولا غير. ظهر في كل عصر بشكل وحي تشريعي وكتاب سماوي. ورسمت خطوطه العامة التي تعود إلى الفطرة التي لا تتبدّل ولا تزول باسم الدين. وليس من اختلاف بين ما جاء به الرسل في هذا الخصوص: ﴿إنّ الدين عند الله الإسلام﴾ وإذا ما بدا تفاضل بينها، فيتعلّق بالدقيق والأدق منها، ويعود الى الاختلاف

الطولي لمعارفهم. وإلى خطوطها الجزئية التي توفر حاجات قسم الانسانية السیال الذي تعرض لتغيرات بسيطة خلال العصور التي عرفت باسم الشرعة والمنهاج، ﴿...لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً﴾^(١١).

ولما كان الدين لتهديب القسم الثابت من الانسانية، فلا يتطرّق إليه النسخ. لأنّ الفطرة الانسانية التي هي موضوع تنمية الدين لا تتبدّل ﴿لا تبدّل خلقي الله﴾^(١٢)، ولذلك فإنّ العلاقة بين رسالات الأنبياء هي التصديق، فلا يعثر على عبارة تدلّ على نسخ الدين السابق وإبطاله وإزالته في كلمات الرسول التالي. ولما كانت الشريعة تركية الجزء المتغيّر من الانسانية فإنّها تقبل النسخ. ذلك أنّ النسخ الاهلي قد يحدث في محال الشريعة الواحدة أحياناً وإن كان النسخ في هذه المواضع يعود إلى التخصيص الزماني. ومن هنا يتبيّن سرّ العبارة، حول ارتباط القرآن بالكتب السماوية وما لم يحرف من رسائل السلف: ﴿مصدّقاً لما بين يديه﴾ أي حيثما يجري الحديث عن الدين وخطوطه العامة تتجسّد مسألة التصديق وليس النسخ وأمثاله، وحيثما يجري الحديث عن النسخ، ينبغي البحث عنه في اطار الخطوط الجزئية فقط التي تسمى المنهاج والشرعة.

ويمكن بشرح الفرق بين الدين والشرعية والتحقيق حول حدود كل من التصديق والنسخ وإثبات وحدة الدين والتعدّد الإجمالي للشرائع أن يظهر سرّ الاختلاف بين مجال التصديق ومحور المحو والنسخ كما يتبيّن ضرورة الاهتمام بأهداف الأنبياء الماضين واغراض كتب السلف السماوية في ايضاح هدف النبيّ الأكرم (ص) وهدف القرآن الكريم، وكذلك سرّ الختم برسالة محمد بن عبدالله (ص)، لأنّ الله تعالى حينما يعلم الحدّ النهائي لتطوّر البشر: ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾^(١٣) ينزل القوانين العامة والقواعد الأصولية التي يكون لكل منها فروع كثيرة، ويرشد إلى طريق الاجتهاد، ويوجب طيّه على الذين يملكون قدرة الإستنباط، وذلك لفهم الحكم الاهلي من نصوص المصادر باطلاع كامل على حدود الموضوع وشروطه وشرطه، وإدراكه بدون هجوم اللّوالبس الزمانية والمكانية، وكما أنّه أنزل سورة التوحيد وأوائل سورة الحديد لتعليم المتعمّقين

في آخر الزمان ولكي ينهل أبناء المستقبل البعيد من فيض زلال زمزمة الوحي فإنه ينزل أيضاً الأصول العامة، لإفهام الباحثين عن المسائل الفقهية، وكلاهما يحرم المستنبطون خلال طول التاريخ من غنى وقوة الكتاب والعرة، ولتتم إدارة النظام الاجتماعية في نور الأحكام الإسلامية.

وبناء على هذه المقدمة العابرة ندخل في صلب الموضوع، لتتطرق إلى اساس بحثنا وهو رسالة القرآن الكريم، في عدة فصول:

الفصل الأول:

رسالة القرآن في الهداية

يشير القرآن الى أن الانسان يسير نحو هدف أبدي ﴿يا أيها الانسان إنك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه﴾^(١٤)، ولا يكون سلوك بلا طريق ومرافق وزاد وامام و مرشد و... وتعدد هذه الأمور المذكورة جائر في الطرق الاعتبارية أو الحقيقية المادية وانفصال بعضها عن بعض ولكن لا يمكن تصور هذا في الطريق الحقيقي والالهي الذي لا يتمايز من السالك، وسيره في العقيدة والأخلاق والأعمال التي تعتبر جميعها من شؤون وجوده وستبدل في المستقبل القريب من الحال إلى الملكة، وتتحول من العرض إلى الجوهر، وتصبح ذاتية بعد أن كانت عرضاً، وتسلك طريقها من خارج الوجود الى باطنه الذي هو غير المفهوم والماهية تصبح مقوم وجودها، وأخيراً تغدو الصورة الظاهرة في الحشر الأكبر نظير سيرة الباطن، ويحشر كل انسان تبعاً لسيرته الجوهرية أي أن السالك والمرافق والزاد والمنازل ونهاية الطريق كلها وكلها تكون واحدة يعلمها الله بواسطة انبيائه المعصومين، ولا يجدر بأحد هداية الانسان سوى الذات الأقدس سبحانه. ذلك أنه الآخرين لا يهتدون بدون هداية المرشد. ومن يكون ذاتاً غير مهتد وبحاجة إلى الهداية لا يملك القدرة على هداية الآخرين. وبما أن الله سبحانه مهتد ذاتاً وكل أعماله على صراط مستقيم بدون أمر من الغير ﴿إن ربّي على صراط مستقيم﴾^(١٥)، لذلك ينحصر به حق هداية الآخرين ﴿أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا

أن يهدي﴾^(١٦)، والمراد من الأحقية في هذه الآية هو التعيين وليس التفضيل، مثل: ﴿أولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾^(١٧)، إذ ليس للآخرين حق الهداية أبداً، لأن كل ما بالعرض لابد أن ينتهي الى ماهو بالذات وعلى هذا فالهداية هي ذلك الهادي بالذات، التي يعرضها الهادون بالعرض وليست هداية أخرى: ﴿إن هدى الله فهو الهدى﴾^(١٨).

ولما كان القرآن هداية إلهية، حيث يكون المهتدي بالذات والهادي الذاتي مصونان من شر أي جهل وخطأ وسهو ونسيان. ومحفوظان من كل تحلف أو اختلاف، ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾^(١٩)، لذلك نُزل لهداية جميع الناس، ﴿هدى للناس﴾^(٢٠)، وإن كانت فئة خاصة تستفيد منه... ﴿هدى للمتقين﴾^(٢١)، ولما كان يملك كل أسباب الاعتلاء فإن طريقة قيادته أفضل طرق الهداية بحيث لا يمكن تصور أو تيسر مرشد أفضل منه: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾^(٢٢)، ولذلك فإن للانسان سير عمودي من أحط منزلة الى أعلى مرتبة في عالم الامكان، ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾^(٢٣)... ﴿يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وأدخلي جنتي﴾^(٢٤)، ومن الضروري أن يكون برنامج هداية البشر، كتاب، يتصل من طرف النزول بالطبيعة ويستمد من النشأة اللفظ والكلام السيال والمفاهيم الاعتبارية، وأن يرتبط من طرف الصعود بها وراء الطبيعة وأن يتخطى حدود اللفظ والعناوين الاعتبارية، كما ورد في حديث الثقلين وأمثاله أن: «القرآن حبل الله الخالص، أحد طرفيه بيدكم والطرف الآخر بيد الله تعالى»، فكما أن نشأة الانسان الطبيعية تتصل بنشأة ما وراء الطبيعة، ولا يتيسر وصوله الى مقام التجرد العقلي بدون العبور من حدود الحس، فليس بالمستطاع الوصول إلى باطن القرآن بدون حفظ ظاهره والعمل به. وكما أن أسرار البشر الروحية بأي شكل كانت تكشف عن نفسها في الحيز الجسمي، فإن معارف القرآن العميقة تظهر نفسها بشكل ما في طيات الكلمات لذلك فإن عامة الناس يستفيدون من القرآن، بما يتناسب ومقدار علمهم، فالخواص ينهلون من اشاراته ويهب الأولياء من

لطائفه ويرتوي الأنبياء من حقائقه.

إن هداية القرآن التي هي كلام الله، هي آية هداية من أنزله أي هداية الله تعالى العينية، تظهر في كل لحظة بشكل خاص، وتوفر الحاجة التكوينية لكل محتاج مستعد ومستحق يطلب شيئاً بلسان الإستعداد ولسان الحال. وهداية القرآن العلمية تتجلى في كل وقت بشكل خاص، وتجب عن السؤال العلمي لكل مبصر، وإذا أردنا البحث في عالم العلم عن دليل ﴿يسأله مَنْ في السموات والأرض، كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (٢٥). فإن الكتاب الوحيد الذي يتضمّن القدرة على إبداء رأي حول جميع المدارس العقائدية والثقافية والاقتصادية والعسكرية والسياسية، ورسم الخطوط العامة لصحتها وسقمها، وارجاع خطوطها الجزئية إلى اجتهاد المستنبطين العالمين بالباطن والمفكرين به، إنما هو القرآن الكريم، وإلا كما كان كتاباً خالداً.

وكما أنّ السنة مواهب الأمور التكوينية مختلفة والأجوبة التي تفيض منها في النتيجة ليست واحدة فإن لسان حال السالكين الى الحق ليس واحداً في بيان المعارف القرآنية. والأجوبة التي يتلقونها منهم ليس مساوية ايضاً، وبما أنّ هم السالكين لتهديب النفس مختلفة فالفيض الذي يكون نصيبهم ليس متساوياً ايضاً، وقد أشير بشكل عام مثلاً الى طريقة هداية القرآن الباطنية في السورة الكريمة ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾ (٢٦)، ولكنّ صفة أهل التقوى أن يتخلّصوا من جنود الجهل العملي، ويلتحقوا بجيش العقل العملي، وأن يتزوّدوا في أعمالهم بالاخلاص والصفاء والوفاء والرضا وأمثالها، ولكنّ الهمة العليا لأحد المتّقين أن ينتصروا في ميدان العلم بالاضافة الى الظفر في ساحة العمل والوصول إلى منازل السائرين الى الله العملية، وأن يتخلّصوا من شرّ الوهم النظري ومن بلاء الوهم العملي، وأن يتحرّروا من هجمات المغالطات الفكرية ويصلوا إلى البراهين العقلية، وأن يرحلوا عن عالم تمثّل الصور النفسانية ويصلوا إلى الأمثلة الصادقة، وأن يعرجوا منها إلى مافوق المثال المقيّد والمطلق. ويقولون ما قاله الحارث بن مالك: «كأنّي أنظر إلى عرش ربّي قد وضع للحساب» ثمّ

يسافروا، من منزل (كأنّ) الذي هو مقام الإحسان ليصلوا إلى منزل (إنّ) الذي يمكن سلوكه والوصول اليه وعندئذ يتبين ما يمكن كسبه من معارف عميقة من الآية الكريمة: ﴿إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلّٰثِي هِيَ أَقْوَمُ﴾، وما يمكن استنباطه من فروق وافرة بين المفاهيم الحصولية للناظرين وبين المشاهد الحضورية للمبصرين، من جملة ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾.

وكما أنّ الترابط التكويني بين كل أرجاء الوجود يساعده على الوصول إلى الفيض، فإن لزوم الوحدة والتنسيق الكامل بين طالبي العلوم القرآنية يساعدهم على فهم أفضل معاني الوحي السماوي السامية لذلك يدعو القرآن الكريم الجميع إلى الاعتصام بهذا الحبل المتين. وليس معنى اعتصام الجميع بالحبل السماوي المتين أن يسعى كل شخص وحده منفرداً إلى الاستفادة من القرآن وأن يكتفي بتفسيره الخاص له، وإنّما المراد أن يفهم الجميع القرآن ليتمكن في ضوء تضارب الآراء وتبدل الأفكار توجيه أسئلة أعمق حوله وتلقي أجابات أكثر دقة وفائدة، بحيث تتفق مع مستوى أفهام العامة وتتسق مع مجالات الأفكار العامة وتتناسب مع عمق روح الجميع، وتوافق أوج عروج الشاهدين، ولا تخالف متن شهود الشاهدين الصادقين، ذلك لأنهم لجأوا جميعاً إلى رحاب القرآن والعرة في ظل الايمان بهما، والعمل بموازين الشريعة، والاستمداد من قواعد المحاور، والاستظهار بأسلوب المحاضرة، واستنطاق الخطابات السماوية عن طريق المشافهة المألوفة والمضمية (٢٧) والمرضية.

إنّ دراسة هداية القرآن التي هي رسالته الأولى، دراسة كاملة تحتاج إلى رسالة مستقلة، ولكننا نكتفي هنا بهذا القدر، وعلى الفصول التالية التي هي بمنزلة شجرة طوبى هداية القرآن، بيان مافات ذكره من المواضيع. فرسالة القرآن في التربية لا تحتاج الى فصل مستقل فقط بل تتطلب رسالة مستقلة، ولكن يمكن برسم الخطوط العامة لها في هذا الفصل والتي تختص بالهداية، وكذلك ضمن الفصول الأخرى التي سيكون لكل منها اسم خاص وموضوع مستقل، ايضاح بعض المسائل التربوية في الاسلام، ذلك أنّ التعرف على أساس التربية

سيجعل بالمستطاع استنباط خطوطها الجزئية.

الفصل الثاني:

رسالة القرآن في المعرفة

إنَّ القرآن الذي هو تجسيد للعلم يدعوا المجتمعات البشرية أكثر من كل شيء إلى طلب العلم، لأنَّ مصباح هدايته يزداد تألقاً بالادراك العلمي، والقرآن وإن كان مرشداً ومبشراً ونذيراً للعالمين... ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾^(٢٨)، إلا أنَّ المستفيدين منه أولئك الذين يخشون النار ﴿إنَّما أنت مُنذر من يخشاها﴾^(٢٩)، والذين يخافون هيب النار ليسوا كثيرين، وأهمهم العارفين بالله سبحانه، ويعلمون أحكامه وحكمه ﴿إنَّما يخشى الله من عباده العلماء﴾^(٣٠)، وإنَّ أجدر الأصحاب في ظلِّ الايمان بالله والخوف منه هم الملائكة القائمون للشهادة في ميدان أبرز العلوم الإلهية أي التوحيد، والذين تصل شهادتهم إلى مسامع أفئدة المبصرين، ممهورة بتأييد الإله الواحد ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾^(٣١).

ورسالة القرآن في الدعوة الى العلم والمعرفة تشتمل على جميع أركانه أي تشتمل من جهة على المبدأ الذي هو الله سبحانه وأسماءه الحسني ومظاهرها المختلفة والتي يعبر عنها بعلم المبدأ، وكذلك تشتمل المعاد الذي هو نفس المبدأ وترتبه بأسماء حسنى أخرى لله تعالى، وتشتمل على المبدأ والمعاد اللذين هما مظاهر اسماء حسنى أخرى لله سبحانه، كما تُعلم ضمن ذلك على الكون وعلم الانسان اللذين يعتبر كل منهما بدوره مظهر اسم من الأسماء الالهية المباركة، وتبين طريقة خلق وتربية كثير من الموجودات من ذات النسمة ومن غير ذات النسمة لشرح آيات الآفاق والأنفس.

وهي علاوة على الاشارة إلى المباحث في تحليل مسائل علم المعرفة بصورة أشكال منطقية دقيقة، ورعاية شروط المنطق الصوري فإنها تولي أهمية قصوى إلى القسم المهم من المنطق الذي يعتبر أصحاب الرأي اسلوبه العلمي جزءاً من فريضة مباحث المنطق، والأقسام الأخرى جزءاً من نافلة مسائل

المنطق، وهي من خلال ذلك لا ترى أنَّ الحسبان والزعم والظنَّ الواهي غير كاف فقط بل تعتبر الظنَّ الذي يصاب به كثير من العلماء نقصاً ولافائدة للظن في التحقيق حول المسائل المتعلقة بالعالم، وقد نزلت في ذلك آيات كثيرة تعتبر الظنَّ كالحُرْص والتخمين والعمل به ضللاً، وتدين عبادة الظنَّ وهوى العبادة. والآيات التالية نموذج لذمَّ الظنَّ وعدم حجَّيته في المسائل العقائدية وعدم الاعتماد عليه في مباحث علم الكون، ﴿إنَّ تَبْعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وإنَّ هم إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾^(٣٢)، ﴿وما يتبع أكثرهم إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾^(٣٣)، ﴿إنَّ تَبْعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وما تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾^(٣٤)، لما كان الجزم لا يتم من الصور الفاقدة لشروط الانتاج، ولا يحصل التعيين بالظنَّ، فإنَّ هداية القرآن الكريم ورسالته في بيان علم المعرفة ان تقيم الأساس على الصور التي فيها شرائط الانتاج الجزمي والمواد الصالحة لإفادة اليقين، والمستفيدون منها تعتبرهم متقين لا يدورون حول محور الحسَّ ولا يحسبون بين جدران الطبيعة ويؤمنون بما وراءها حيث منطقة الغيب والعقل ﴿يؤمنون بالغيب﴾^(٣٥)، ولا يكتفون بالظنَّ فيما يتعلَّق بالقيامة بل يصلون الى حدود اليقين ﴿و بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾^(٣٦)، وهم في ظل علم المعرفة لا يفرقون بين الظنَّ المتأخَّم الذي يكون نفوذ الشبهة فيه مستبعداً لاحتمالاً، وبين اليقين الذي يكون نفوذ الشك فيه مستحيل لا بعيداً، ولا يحسبون الظنون المتراكمة يقيناً، ولا يعتبرون البعيد ممتنعاً فكما أنَّ القرآن الكريم يعتبر الفكر الخالص، مجال حصول المبصرين على اليقين فإنَّه يرى أنَّ الذكر والشكر الخالصين هما الوسيلة لحصولهم على اليقين. ذلك أنَّه بعدما حدث لابراهيم الخليل (ع) الذي هو نموذج كامل لأولي الأبصار، وكان شاهداً لملكوت السموات والأرض وبلغ اليقين الشهودي والجزم البصري عن هذا الطريق ﴿وكذلك نُرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين﴾^(٣٧)، فإنَّه يدعو جميع أولي الأبصار للنظر في ملكوت السموات ليصلوا من منصَّة القفز هذه إلى مقام اليقين المدرك والجزم النظري، وإن كان الوصول الى مقام الجزم البصري بدوره سيصبح ممكناً ﴿أولم ينظروا في ملكوت السموات

والأرض» (٣٨).

بل هو المراد والمطلوب.

وبما أنّ هذه المقالة تقوم على أساس الاختصار، وقد وردت بعض المباحث العبادية في هذا الفصل، لذلك لن يعقد فصل مستقل لبيان رسالة القرآن في العبادة، كما أنّه لم يعقد فصل مستقل لبيان رسالة القرآن في التربية.

الفصل الثالث :

رسالة القرآن في المعاشرة

لقد وردت الخطابات القرآنية بصيغة الجمع، فدعت الناس إلى الاجتماع والألفة، واعتبرت المجتمع مسؤولاً، والقرآن يعلم الآداب والسنن في العلاقات الاجتماعية بشكل يتناسب مع كرامة الانسان ويتفق مع أحسن تقويم البشر، ولذلك يذم جميع صفات التفرقة المؤذية إلى الألم ويشني على جميع الخصال الداعية إلى المحبة والتواصل، وهو يقبل تأثير الاختلافات العرقية والمحلية والزمانية والاقليمية وأماها في حدود تعرف كل منها على الأخرى فقط، وليس الفخر والكبر، ويرى أنّ المباهاة الوحيدة تكون في نبذ التفاخر، وترك سوء المباهاة والابتعاد عن تعدي حبّ الجاه، ونفض غبار الكبرياء، ودخان حبّ الرئاسة وسائر المعاصي.

ولا يعتبر الأدب الاجتماعي ومقابلة الآخرين ضرورياً في حدود الأخوة الإسلامية فقط، ولا يحیی روح المساواة بين المسلمين بقوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٤٤) فحسب بل إنّ يعتبر بناء على نطاق دعوته العالمية الشاملة أنّ أساس الصفاء والاخلاص الانساني بين جميع المجتمعات البشرية مفيد أيضاً وطالما لا يوجد شخص أو جماعة يكونون في أنفسهم القيام بفتنة مدمرة، ويطوف في خيالهم ارتكاب الظلم والجور وجب معاملتهم جميعاً بميزان القسط والعدل والاحترام المتبادل ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٤٥)، ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُم فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ اخْرَاجِكُمْ أَن تَتَوَلَّوهُمْ، وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّوْهُمْ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٤٦).

كما يدعو جميع سالكي طريق الحق إلى الذكر والعبادة الخالصة، ليصلوا عن طريق الذكر والشكر كطريق الفكر والشعور إلى الدرجات العالية من اليقين ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^(٣٩).

ويعلن للموقنين الذين يصلون عن طريق الفكر والشعور أو الشكر والذكر في الأسرار إلى مقام اليقين إنهم لا يزالون في الطريق وإنّ أهدافاً سامية لا تزال في انتظارهم تحملهم من علم اليقين إلى عين اليقين ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾^(٤٠). واليقين عامل مؤثر يوصل العبد الصالح السالك من مقام المحب إلى درجة محبوب الحق السامية، حيث لا يذوق فيها لذة المحبة فقط، بل إنّ يخال ويقتخر لكونه محبوباً، وإذا كنّا قد استمتعنا حتى الآن بلذة مناجات الحق فإننا الآن نغرق في النشاط من شوق مناجاتنا لله سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾^(٤١)، «ما برح لله عزت آلائه في البرهة بعد البرهة وفي أزمان الفترات، عباد ناجاهم في فكرهم وكلمهم في ذات عقولهم»^(٤٢)...

فهؤلاء ينعمون في كل لحظة بالعبادة بفائدة جديدة من اليقين، ويقومون باليقين الأفضل بعبادة أفضل، كما أنّ أولى الأبواب ينالون بالفكر فائدة جديدة من اليقين النظري، ويحصلون بذلك اليقين على مفتاح حل المصاعب النظرية.

ولما كان نظام الخلق يقوم على أساس العلة والمعلول، ويدير سلسلة العلل كلها الله سبحانه الذي هو مسبب جميع الأسباب، وهي مجاري الفيض فقط، فإنّ طلب أي فيض يكون بحفظ مبادئها مجاريها، والوسائل لا تخالف حكمة الله أبداً ولا تغييرها، وإنّما تتفق معها: «يا من لا تغير حكيمته الوسائل»^(٤٣).

ولذلك فإنّ العلم يحصل تارة من الفكر والشعور وتارة من الذكر والدعاء، وطلب زيادته يقترب بطلب التوفيق في الفكر والحدس والسعادة في العبادة والتوجه إلى الله. وبناء على هذا فإنّ ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ يقترب مع طلب التوفيق في السعي والتفكير العقلي أو التهجد القلبي، إذ إنّ جمعها ليس ممكناً فقط

قَوَاماً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾^(٥٥)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾^(٥٦). وهناك عدد من الآيات تنهى عن الظلم مقابل الأمر بالعدل، ولا تفرّق بين التسلّط والخضوع. وتعتبر الخضوع كالظلم مذموماً، وتنهى عن كليهما ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾^(٥٧).

ويعتبر القرآن الكريم، الاختلاف في المواهب تمهيداً للاختبار ووسيلة لتوزيع الأعمال الاجتماعية توزيعاً عادلاً وتسخير أفراد المجتمع بعضهم لبعض ويمنع كل نوع من أنواع الإهانة وعدم الاحترام والسخرية ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٥٨)، ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سَخِرِيّاً، وَرَحْمَةَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(٥٩) فهاتان الآيتان تبيّنان أنّ المواهب الالهية أياً كانت هي ابتلاء للخلق وليست تكريماً للحاصلين عليها واهانة لمن فقدوها والهدف منها تقسيم الواجبات الاجتماعية. كما إنّ الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرِ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ﴾^(٦٠) نهت عن أي نوع من الاستصغار والتكبر والتفاخر، ودعت إلى ضرورة حفظ الاحترام المتبادل لتمهيد سبيل المعاشرة الاجتماعية في ظل الكرامة لظهور المدينة الفاضلة.

وتتناسب معايشة كل مواطن في المدينة الفاضلة مع مسؤوليته لذلك فإنّ واجب المسؤولين الكبار في المجتمع أكبر من الآخرين في هذا الشأن ولهذا أمر موسى كليم الله وهارون، عليهما السلام، أن يبدأ بالقول اللين لنشر الدين ﴿قولا له قولاً ليناً لعلّه يتذكّر أو يخشى﴾^(٦١) وإن كان فرعون قد غشيه اليم أخيراً لسوء عمله وغشي من كان معه من الأنصار المتعصبين أيضاً: ﴿فغشيه من اليم ماغشيه﴾^(٦٢) كما أمر الرسول بأن يعامل الناس بالرحمة واللين والتواضع: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفّضوا من حولك﴾^(٦٣).

وبما أنّ الانسان خلق بـ ﴿أحسن تقويم﴾^(٤٧) فمن الجدير أن يرَبّي مثل هذا الموجود بالتي هي أحسن، لذلك قال جلّ وعلا ﴿قل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم﴾^(٤٨) و﴿قولوا للناس حسناً﴾^(٤٩)، وليس مراده من «يقولوا» و«قولوا» المقابلة اللفظية بل مطلق السلوك والمعايشة. وبالرغم من ضرورة ردّ كل هجوم على الحدود الاسلامية والقضاء على كل نزاع، واتخاذ كل حملة يقوم بها العدو الأجنبي غير أنّ الاختلافات إن وقعت في داخل الحدود الاسلامية، وجب عدم ضرب الأخ المسلم الذي يبدو عدواً في الظاهر والقضاء عليه قضاء مبرماً، وإنّما ينبغي ازالة العداوة معه وليس العدو، فليس ازالة العدو صعباً. بل إنّ القضاء على العداوة وإعادة الصداقة والوثام فن لا يبلغه سوى الاخوة الصالحين ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الَّذِي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾^(٥٠).

وبناءً على هذا فإنّ المنطقة الاسلامية كمحيط العائلة، تدور حول محور العطف والمحبة وتقوم على أساس ﴿وعاشروهنّ بالمعروف﴾^(٥١) والاتصال والانفصال والانفصام والوثام يكونان بالمعروف والاحسان ﴿فإمساك بمعروفٍ أو تسريح بإحسان﴾^(٥٢) و يقوم احترام المسنّين على قوله تعالى ﴿وإِذَا بَلَغَنَّكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهَا أَفٍّ وَلَا تَنْهَرُهَا وَقُلْ لَهَا قَوْلًا لَئِيمًا﴾^(٥٣)، ذلك إنّ العطف على المسنّين يدخل في نطاق حياة الصغار وهم يحتاجون إلى المحبة والحنان.

ويقوم أدب العاشرة الحقوقية في المجتمع الانساني في القرآن على أساس القسط والعدل. ولذلك فإنّه ينهى عن تحمل الظلم مع امره بالعدل. وهو من خلال النهي عن الظلم ينهى عن قبول الظلم، ويستنبط هذا من متون آيات القرآن الكريم ذلك أنّ بعض الآيات تعتبر رسالة جميع الرسل، القيام بالقسط والعدل ﴿لقد أرسلنا رُسُلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾^(٥٤)، وتؤكد بعض الآيات أنّه لا يتيسر القيام بالعدل دون تجهيز كامل واستعداد نهائي، لذلك لا يكفي ان يقوم الانسان بل ينبغي أن يكون

العامّة لأنها تحكي عن عالم الغيب وحدود الروح، وهي تكتسب أعلى قيمة لها من تلك المعلومات القيّمة.

والمراد من هذه القيمة هو قوة الدرجة الوجودية التي تعتبر من الأمور الحقيقة وليس القيمة الاعتبارية. إلى أن تنزل من حدود الحقيقة وتدخل في العناوين الاعتبارية، وتتغير بأعتبار مختلف المعبرين، ورغم أنّ الاقتصاد في القرآن هو فرع وليس أصلاً غير أنّ الإسلام كان ولا يزال ينظر بإهتمام إلى سائر المسائل الفرعية.

ولا يعتبر المال وما ينفصل عن حقيقة روح الانسان، كما لا له. بل وسيلة لتوفير الحاجات الطبيعية، ولما كانت تهيئة وسائله لا تخلو من النصب فقد أدخر في باطن طبيعة الانسان وليس في فطرته مقدار معقول من الدعوة الباطنية ولذة التملك ليستطيع بها وبحجتها أن يتحمّل عذاب الحصول على المال.

وكما أنّ القرآن الكريم يرى الكواكب زينة السماء وليست زينة الانسان ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾^(٦٨) فإنه يعتبر الحدائق والسهول زينة للأرض وليست زينة للبشر ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَإِنَّا جَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾^(٦٩)، ولكنه يعتبر الإيمان الذي هو من نسخ الروح زينة روح الانسان: ﴿حَبِّبْ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ زَيْنَةً فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهْ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾^(٧٠).

إنّ حبّ المال أكثر من كونه أداة وجمعه زائداً عن رفع الحاجة مذموم، وإن كانت تنميته لتوفير وسائل الرفاه للآخرين وتخفيف عبء الفقر الشديد والتضخم المالي في المجتمع، كلما ازدادت كان أفضل، وقد اعتبر القرآن الكريم حبّ المال حباً جماً، غماً للروح، وذمّه ﴿تَحِبُّونَ الْمَالَ حُبَّ جَمًّا﴾^(٧١)، وإذا كان قد وصفه بالخير كقوله: ﴿إِنَّهُ لَحَبُّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾^(٧٢)، فعلاوة على أنّ كلمة خير أولاً هي صفة للمال وليست صفة للحبّ وثانياً لا يفهم من آية مدح حبّ المال إنه سمّاه خيراً بزعم أنّه محبّ للمال. فسياق الآية في ذم الانسان الكفور برّبه سبحانه ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ وَإِنَّهُ لَحَبُّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾^(٧٣)، وكذلك فإنّ آية الوصيّة التي ذكرت المال بالخير إنّما كان لضرورته في الحياة الدنيا وإنّما في هذه الحالة خير ولا

ومن هذا أيضاً، استشارة الآخرين واحترام آرائهم لحفظ الوحدة في المجتمع ودعوة القوى الفعالة، والتنسيق بين أصحاب الرأي والوصول إلى القرار النهائي الصحيح. وهو ما أمر به الرسول الأكرم (ص) أيضاً. حيث يقوم سلوك النبيّ كما أمره الله سبحانه على خفض الجناح والتواضع للمؤمنين: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٦٤) وإن كان موقف الرسول القاطع من الطغاة اعلان براءة هذا الزعيم الالهي من العاصين سنة الاسلام الباقية: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَفْعَلُونَ﴾^(٦٥).

ويأتي خفض الجناح في القرآن الكريم أحياناً بمعنى إظهار الاحترام والخضوع كما يفعل الإبن، أمام أبويه المستن ﴿وَأَخْفِضْ لَهَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾^(٦٦) ويأتي أحياناً أخرى مظهراً للرافة والرحمة والعطف كالذي أمر به الرسول (ص).

إنّ من رسالات القرآن الأساسية في تحسين أدب المعاشرة هو وضع أسس المجتمع المثالي والتمدّن الأسمى واصدار أمر لمثل هذا المجتمع بحسن الظنّ. ومع إنّ الواجب الأول في المجتمع السيّء هو سوء الظنّ إلا إنّ الأمر الأول في المجتمع الصالح هو حسن الظنّ بالآخرين ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾^(٦٧).

الفصل الرابع :

رسالة القرآن في المعيشة

يعتبر القرآن الكريم الروح من عالم الغيب، والبدل من عالم الشهادة، والاتصال للغيب الذي هو واسطة فيض الله سبحانه ينال منه مستفيضوا عالم الشهادة، وعلى هذا فإنّ صفات الروح والتي أهمّها الاعتقاد هي الأصل، وتوفير حاجات البدن المقيّد بالمسائل المالية والمادية أي الاقتصاد هو الفرع ورغم إنّ التفكير الاقتصادي ووضع الخطط والبرامج الدقيقة لمسائلة المعقّدة تعتبر من أهم العلوم، غير أنّ كلّ علم من تلك الناحية يحكي عن المعلوم، حيث يأخذ قيمته من المعلوم لذلك فإنّ علم معرفة الله وعلم معرفة الرسول وعلم معرفة الإمام وعلم معرفة المعاد وأمثالها من أصول الإسلام

تعلق بأحد.

ولا يعتبر امتلاك الثروة في الاقتصاد الاسلامي كمالاً. يكون مالكة كاملاً وفاقه ناقصاً، وقد تحدث الإمام عليّ ابن أبي طالب (ع) في شرحه لمسألة الثروة، عن حياة بعض الأنبياء البسيطة وحاجتهم كالرسول (ص) وموسى (ع) وداود (ع) وعيسى المسيح (ع) ثم يقول: «فليُنظر ناظر بعقله، أكرم الله محمداً بذلك أم أهانه فإن قال أهانه، فقد كذب والله العظيم بالإفك العظيم وإن قال أكرمه فليعلم إن الله قد أهان غيره حيث بسط الدنيا له وزواها عن أقرب الناس إليه» (٧٤).

وعلى هذا فالمال زينة الدنيا وليس زينة الإنسان، وجهه بالمقدار المعقول في حدّ المحبة وسيلة للإصلاح وليس أكثر منها ولا أن يكون هدفاً. وكثر المال والذهب مذموم، والشوق إلى القناطير المقنطرة يصدّ عن سبيل الله ويسدّ طريق سموّ الروح. ومجموع مال الدنيا بقدر حاجة مجموع الناس وكثره في مكان واحتكاره عند جماعة أو شخص خاص يخالف النظام المالي في الاسلام. والتأسي بالأنبياء يكون في الحياة البسيطة والكمال يكمن في الهجرة من التكاثر إلى الكوثر. حيث الخير النفسي وليس النسبي والخير الواقعي لا الإعتباري والمزعوم... إن انتصار المقاتلين في صدر الإسلام ومن ورائهم يعود لأسباب أحدها القناعة في المعيشة وأفضل مثال لها أصحاب الصفة من المهاجرين وإيثار الأنصار والتحليل النهائي للحرب بين المسلمين والكفار يتجلى بانتصار الكوثر على التكاثر والإيثار على الإستثمار وغلبة الزهد على كثر الذهب وتسلط الحياة البسيطة على الحياة المعقّدة والخلاصة اعتلاء كلمة الله على الكلمات الأخرى.

إنّ الذي يرسم الخطوط العامة للاقتصاد الاسلامي هو القسط والعدل اللذان يرسمان كل الخطوط الدينية، لذلك فهو. ينقص من افراط المبتلين بكثرة المال كيلا يقعوا في فخّ الكظة والبطنة والإسراف والإنتراف والظلم والشحّ والولع والحرص، كما يقل من تفريط المبتلين ببلاء الفقر المالي، كي لا يصابوا بالسغب والشدة والجوع والعري والمسكنة والتشرد، وقد أخذ عهد بإنزال القانون العام ﴿كي لا يكون دولة بين اغنياء

منكم﴾ (٧٥). من الجميع ولا سيما من العلماء الحقيقيين وعلماء الدين المؤمنين والمفسرين الملتزمين والفقهاء الزاهدين، أن يقفوا في وجه عدم المساواة بين الأغنياء والفقراء وألا يسكتوا مقابل عدم إيمان المتكاثرين وأمام المحرومين وأن ينهضوا لقطع دابر الظلم للتوزع الأموال على جميع الناس ولا تبقى بيد أشخاص خاصين حقيقيين أو حقوقيين: «لولا حضور الحاضر وقيام الحجّة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألا يغاروا على كظة الظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حابلها على غاربها ولأسقيت آخرها بكأس أولها...» (٧٦).

ويبدو من هذا الكلام أن الجميع مسؤولون عن تنظيم وتوفير العدل الاقتصادي سواء من كان قادراً على القيادة والولاية، ومن كان غير قادر على الزعامة، أو من تسقط عنه ولاية المسلمين بقيام أحد بالكفاية.

إن وجوده في الميدان ودعمه للزعيم وتولي ولي المسلمين واجب عليه، وإذا افترض أن يكون هذا الشرط بالنسبة لولي المسلمين شرط للوجوب وليس واجباً ومقدّمة حصولية وليست تحصيلية فإنّه بالنسبة إلى الحاضرين والمناصرين شرط واجب وليس وجوباً وأمر تحصيلي وليس حصولياً.

ويمكن أن يستنبط أساس هذا الموضوع هو أن الغنى والفقر كلاهما امتحان إلهي وليس أي منهما في ذاته سبباً لكرامة الانسان أو اهانتة بالرجوع إلى بعض الآيات كسورة الفجر: ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربّي اكرمّن، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربّي اهانن، كلا...﴾ (٧٧)، وإن كان قد ورد في الآيات الأخرى من هذه السورة أنّ الظنّ الباطل المبتلى الغني يدفع الإنسان إلى أن يحب المال حباً جماً ويمنعه من اطعام المساكين لا راغباً ولا مرغّباً. إنّ ماورد عن أهمية المال كان له مظهر وصفي لا أمري وكذلك كل ما قيل عن خطر الفقر المالي له مظهر وصفي لا لافرضي. فالرسول (ص) قال عن خطر الفقر الاقتصادي مثلاً: «بارك لنا في الخير ولا تفرّق بيننا وبينه فلولوا الخير ما صلينا ولا صمنا ولا أديننا فرائض ربنا» (٧٨)، وهذا يشمل مظهر التأثير الطبيعي للقضية فقط وليس ناحية فرضه، وهو دليل على مدى

تحمّل المتوسّطين من الناس، وإلّا لما قام أحد من الرجال المؤمنين في صدر الاسلام أو في عصرنا بنصرة الاسلام الخالص مع تحمّل كل شدائد الفقر، ولما طرد الأعداء الغاصبين من حدود وطننا الاسلامي ولما حفظ كيان القرآن والعتره بمعونة الله من شرّ الأجانب.

الفصل الخامس:

رسالة القرآن في السياسة

إنّ كل وصف كماله أوردته الله تعالى للقرآن الكريم بمنزلة شرح لرسالته، فوصل الرسول في حكم بيان حدود رسالته، وكيفية ابلاغ الرسالة وثمره العمل بدعوته، فإذا وصف القرآن مثلاً بالكريم والمجيد والهادي فمعنى ذلك إن رسالته الكرامة والمجد والقيادة وبناء على هذا يمكن القول بالاستفادة من وصف القرآن بالنور أنّ رسالته الإنارة وأنّ النظر في هذا النور والعمل به ينير المجتمع الانساني ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾^(٧٩). ولما كانت الإنارة من الصفات العامة للرسالات السماوية، ولا فرق في هذا بين الرسل سوى في الشدة والضعف، فقد ورد عن التوراة الأصلية وغير المحرّفة التي نزلت على موسى كليم الله (ع): ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾^(٨٠)، وبالإعتماد على وصف القرآن بالنور فإنّ الهدف الاسمي لهذا الكتاب السماوي هو إنارة الناس، وقد ورد هذا الموضوع بصراحة في سورة ابراهيم (ع): ﴿الرَّ كِتَابَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾^(٨١)، أي إن كان الله ولي المؤمنين: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وثمره هذه الولاية إخراجهم من كل نوع من أنواع الظلمات أكان ذلك بشكل دفع عن الأطهار والمعصومين أم رفع عن المذنبين من أهل الإيثار ﴿يُخْرِجُهُ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^(٨٢)، فإنّ أفضل وسيلة لإرشاد المؤمنين إلى النور هو إنزال القرآن، وأكمل مظهر لهذا الاسم الشريف هو وجود الإنسان الكامل المبارك، أي النبي الأكرم (ص). لذلك فإنّ الإخراج من الظلمات إلى النور الذي هو من صفات الله العقلية

قد نسب إلى الرسول العزيز. ولما كان كلّ فعل أو وصف ناشئاً من جوهر ذات الفاعل والموصوف وكانت سائر الرسائل القرآنية قد وردت في اطار الفعل أو الصفة، فإن هذا الوصف الممتاز يتحدث عن جوهر ذات الانسان، أي إن هدف القرآن الأسمى هو هداية ذات أفراد المجتمع إلى النور، وإذا اهتدى فرد أو مجتمع في جوهر ذاته إلى النور فإنّه لا بدّ أن يتمتّع - في الوصف - بالفضائل النفسانية، ويصبح في الفعل ذا سلوك وأعمال محمودة وممدوحة، ذلك أنّ صلاح الصفة أو الفعل لا يستلزم صلاح جوهر الذات ولكن صلاح جوهر الذات لا بدّ أن يتبعه صلاح الوصف أو الفعل، لذلك فإنّ كل من يكون من الصالحين، فإنّه يكون مصداق من (عملوا صالحاً) ولكن عكسه ليس ضرورياً وكل من يتمتّع في جوهر ذاته من نورانية القرآن فإنّ سيرته في حياته ستكون واضحة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمَنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلًا مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ...﴾^(٨٣). فتأثير التقوى والايان برسول الله يساعد القلب على الاستفادة من النور الالهي ليستطيع الانسان أن يتخلّص بدون خوف من الضياع من ظلمات الوهم المغالط في العلوم النظرية والأينساق في المشاهد الحضورية في ظلمات الهواجس والوساوس، فيتوهم الصور النفسانية والشيطانية صوراً ملائكية ورحمانية، ولا يصبح أسير شباك الهوى وقبوض الهوس في الصفات والأفعال.

والقرآن الكريم الذي هو نور مصون في بيان علومه من كل آفات الابهام والتلخيص والتعمية، وهو حيناً يتحدث عن طريقة انارته، وكيفية هداية المجتمع إلى النور يتطرق إلى أهم مسألة في المجتمع البشري إلا وهي حكومة العدل وسياسة القسط ويرى ان السبيل الوحيد لهداية الناس إلى النور يكون في ظل سياسة الرسل الصحيحة، ويعتبر المجتمع البشري مظلماً بدون حكومة الوحي وسياسة الانبياء والسياسيين الافهين، ولذلك فإنّه بعد أن عرف أنّ الهدف الاساسي لرسالة القرآن هو هداية الناس إلى النور، وأمر الرسول بتنفيذ هذا البرنامج الالهي بيّن طريقة تحقيق هذا المشروع بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ اخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

ذَكَّرَهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ^(٨٤).

إنَّ أهم أعمال موسى (ع) في اخراج بني اسرائيل إلى النور هو تأسيس حكومة الحق ومحاربة سياسة ظلم آل فرعون والثورة على الشرك والعمل على رفع راية التوحيد والجهاد ضدَّ الهيئة الحاكمة آنذاك والسعي لتأسيس النظام الإلهي، ولا يتيسر وجود سياسة العدل للتنفّس الحرّ دون قضاء السياسة المنفتح، ولا يمكن تهذيب النفس وتركيز الروح دون حكومة العدل؛ ذلك أنَّ أهم أعمال الطواغيت زج المجتمع البشري في الظلمات هو تأسيس الحكومة الفاسدة وتعطيل الحدود الإلهية، وتنفيذ القوانين البشرية، ونشر الإلحاد ومخالفة التوحيد والدعوة إلى جهنّم. ومّا لم يرد عن أيام الله وتتفق مع يوم ظهور المهدي أرواحنا فداه ويوم القيامة وأماهما فهو من باب المثال وليس البيان ليفيد الحصر. وبناء على هذا فإنَّ يوم انتصار المعجزة على السحر، وظفر الامداد الغيبي على جيش آل فرعون وانشقاق البحر ونجاة الموسويين وغرق الفراعنة وهلاكهم ... هي من أيام الله.

ولمّا كانت الحرب مع ظلام العصر تتطلب الثبات، فقد ورد الحديث عن الصبّار والشكور وليس الصابر والشاكر، كما سبق وشرحنا الفرق بين القائم بالقسط وبين القوّام به.

ودراسة أصل الدين والتحقيق حول دليل ضرورته يبين بوضوح مسألة السياسة الدينية، ذلك أنَّ برهان النبوة العامة وحتميتها من أجل المجتمع يقترن مع حدوث تدوين القانون العام اقامة الحدود والتعزير والقصاص والحرب والسلام، وكل هذا من شؤون السياسة الواضحة.

وإنَّ التفكير بانفصام الدين عن السياسة يمنع من إقامة البرهان العقلي على ضرورة الوحي والنبوة، اذ لا يمكن اعتبار المجتمع البشري كالملائكة المعصومين من الاعتداء والظلم، ولا يمكن تحمل اعتداء الظالم، ولا يجوز الوقوف في وجه المعتدين بوضع القوانين البشرية وتنفيذها ولا يمكن ايداع اقامة الحدود الإلهية بيد أي شخص بدون ولاية وإمامة؛ وإلّا تعمّ الفوضى من جهة والنكول الضمني من جهة أخرى عن برهان ضرورة الوحي والنبوة.

وإذا تعصّب أحدهم وتظاهر بالتظلم واعتبر الدين منفصلاً عن السياسة، وقال إنَّ واجبي هو حفظ الدين، ولا دخل لي بشؤون السياسة، وأعلن حياده، فإنَّ السياسي القهّار لن يتركه، ولن يفصل منطقة سياسته عن حدود الدين، ولا يعتبر الدين ظاهرة ما وراء الطبيعة وإنما سيجذبه إليه ليستغله لفائده وسيغرق المتدين الجاهل بالدين والمتعصب، في ظلمات مكره الخبيث، سيفهمه بأنَّ من الواجب عليه أن يستنبط من المصادر الدينية معاني تتفق والخطوط العامة للسياسة المشروعة، وينبغي على كل رجل دين أن يعمل بشكل يوافق فيه على القوانين الظالمة لهذا السياسي غير المتدين، وإن يكون مفيداً في وصول السياسيين الظالمين الى أهدافهم الفاسدة.

إنَّ الحديث عن الظن بانفصال الدين عن السياسة وإعلان انفصام كل منهما عن الآخر ظلماً، شبه توهم انفصال التخيل وافتراق حدود العقل عن الجهل في الجهاد الأكبر، أي إذا أعلن العقل النظري نبذ النزاع مع الوهم النظري، وأعلن العقل العملي ترك الصراع مع الوهم العملي، وعقدت الفطرة الانسانية اتفاقية مع طبيعة حب الشهوة أو طبيعة الافتراس فيها، تنص على عدم الاعتداء، وانشغلت بأعمالها هادئة، فإن الوهم النظري لن يكف عن الاعتداء على العقل النظري ولا ينصرف الوهم العملي عن التعدي على حدود العقل العملي بل إنَّ الغضب القهّار والشهوة المشعوذة يستمران في أذى حرية العقل، حتى يأسر الهوس الأسود العقل الصافي فلا يستطيع العقل أن يفعل شيئاً وهو ما تحدث عنه أمير المؤمنين علي (ع) بقوله: «كم من عقل أسير تحت هوى أمير^(٨٥)، و شهد على ذلك العقل إذا خرج من أثر الهوى»^(٨٦).

ويمكن مشاهدة هجوم سياسة الظلم على دين المتعصبين القائلين بانفصام الدين عن السياسة في مصير الكنيسة المشروم، كيف غيرت التفسير الدينية وفقاً لمطالب السياسيين المتلاعبين، وأصبحت خاضعة لهم شيئاً فشيئاً، ووافقت ومن جانب واحد على أساس الانفصام وحرقت الوحي السماوي مقابل وهم السائسين وأخيراً أصبحت عاملة

على إقامة الحكم العلماني آنذاك.

ولم يكن عالم الاسلام بعيداً عن هذا الضرر أيضاً. فقد استنبط المفكرون بالانفصال نفس هذا المعنى من كلمة «أولي الأمر» في قوله تعالى ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾^(٨٧)، فوافقوا على سياسة القوة عندهم، وأصبحت إقامة الحدود الإلهية أخيراً تابعة لهوس الأعياب السياسيين، وكانوا في الفرص المناسبة السياسية أيضاً يصدرن فتوى توفر الحاجة الكاذبة للهيئة الحاكمة. ومن هنا يدرك معنى أسر الدين في هوس سياسيي المكر والتي قال عنها الامام علي (ع) في رسالته إلى مالك الأشتر «فإن هذا الدين كان أسيراً في أيدي الأشرار، يعمل فيه بالهوى ويطلب به الدنيا»^(٨٨)، أي إن الدين حرّ في حكومة عدل علي (ع) وأسير في حكومة جور غير علي (ع) لا أن الدين منفصل وحرّ وله حدود خاصة.

ولابدّ من ذكر نقطتين مفيدتين في إتمام مسألة السياسة الدينية الأولى: إن القرآن يرى كمال الدين واتمام النعمة في تعيين امام الاسلام وولي المجتمع ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾^(٨٩). وفي ظلّ الولاية وإمامة المسلمين يتبدّل أمل أعداء الاسلام باليأس ﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون﴾^(٩٠)، والثانية: أن السياسة الإلهية تنصرف على جميع الأديان بظهور آخر ولي ومعصوم في الدين الاسلامي ﴿ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾^(٩١). وإن كان الدين الصحيح والسماعي واحداً ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾، ولكن بما أن الدين يعني مجموع القرارات والقوانين، وهذه يضعها البشر أحياناً كما قال فرعون ﴿إني أخاف أن يبدّل دينكم﴾^(٩٢)، وأحياناً أخرى يتدخل البشر في هذا الموضوع الإلهي ويحرفونه: ﴿يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله﴾^(٩٣)، وبالتالي لا يؤمنون بدين الاسلام الخالص وغير المحرّف ﴿ولا يدينون دين الحق﴾^(٩٤)، ولذلك تمّ التعبير بكلمة «كله» التي تفيد التعدّد والكثرة.

ومن الواضح أن قتال المشركين لا يكون بلا سياسة، وأنّ الدين كله لله، ولا يتيسر القضاء على كل دين غير الهي بدون زعامة وإمامة الساسة الإلهيين ﴿قاتلوهم حتّى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾^(٩٥).

الفصل السادس:

رسالة القرآن في الثقافة

الدين الإسلامي مجموعة من الإدعاء والدعوة، أي ادعاء نبوة الرسول الأكرم (ص) والدعوة إلى قبول أصوله وفروعه، وإن كان لبعض الأحكام الفرعية ظاهرة تعبديّة وهي خارجة عن نطاق الحسّ والعقل المتعارف، وتظهر مصالحها بعد مرور الزمن التجربة خلال مدّة طويلة، لذلك قال سبحانه ﴿يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾^(٩٦).

غير أن خطوطها العامة تقبل إقامة البرهان، أي أن أصول الدين تقبل البرهان دائماً، والعقل مستقل وقادر على ادراك أسسها الأصلية، وإن كانت الشواهد الشرعية معيناً مناسباً ومعاوناً مساعداً لها، وكذلك المباحث العامة للأخلاق والحقوق والفقه الاسلامي التي الفطرة وعلم الإنسان وعلم المجتمع من خصوصيتها، بدورها تصلح للاستدلال لا في حدّ الأصول الأولية.

إذا أقيم مذهب على البرهان نجا من هجمات نقد الناقدين المتوهمين، وإذا قبلت كل الأمور المذكورة بناء على اساس السنة القديمة لتقليد المقلدين اللاحقين للمقلد السابق وكان قدم الزمان وحده مسند حجيتها وقطعيتها، وحل التصديق الباطني محل البرهان العقلي، واستبدلت الاذن السماع من المبلغ الخارجي بادل صوت الاستدلال وتولى البصر مسؤولية البصيرة، وأصبح شعار «حسبنا السمع والبصر» مسبباً لعزل القلب وحبس الفؤاد، فإنّه سيكون عرضة دائماً للناقدين الممحصين. وطالما أن قدرة الدفاع لم تتوفر، فإنّه إمّا أن يبتلى بخطر الارتداد أو بتعصب التفكير ويتشبث بحربة الطرد والطعن واللعن حيث لا يجوز ذلك الافراط، ولا هذا التفريط، لأنهما كلاهما بعيدان عن صراط مستوى العلم

والعقل.

ومن هنا يمكن القول إن التفكير الفج بفصل الدين عن العلم كالتعصّب لإنفصال الدين عن السياسة، يحمل الكثير من المفاصد، والقول بأن العلم والدين وإن لم يخالف كل منهما الآخر لكنهما مختلفان، فإن كان هذا بمعنى أنّ الخطوط العامة للدين لا تقبل التعليل العقلي بل هي أمر وجداني وباطني لا يصلح للاستدلال، فإنه سيؤدي إلى كثير من المحاذير سنشير إلى بعضها فيما بعد.

ومن الضروري قبل ذلك أن نبين بشكل عام العلم بمعنى المعرفة والعلم بمعنى مجموعة من المسائل والأحكام. - فالعلم كما هو - يستدعي الاهتمام بأقسامه من قبيل الحسي والعقلي والقلبي، والعلم كما هو - يستدعي بيان الحدود التي تفصل العلوم بعضها عن بعض، وكيفية اتصالها ومقدار ارتباطها ببعضها، ومقدار انفصال بعضها عن بعض، كي لا يتوقع مكان انفصالها، ويتنظر انفصال ما يتصل منها وهذا التوقع (أي اتصالها عند انفصالها) ليس صحيحاً كما إنّ الإنتظار (الإنفكاك عند الإتصال) ليس ضرورياً باتصالها وارتباطها.

ورغم أنّ العلوم الدينية تشتمل على المسائل الحسيّة والتجريبية، وإنّ قسماً منها قابل للاحساس والتداول في العلم الحسي، غير أنّ القسم الأعظم منها يقع بعيداً عن متناول هذا العلم وهو في حدود العلم العقلي. ومع أنّ أصلها كلّها هو الوحي والإلهام فإنّها علاوة على عبورها من قدرة العلم الحسي فإنّها تتجاوز حدود العلم العقلي أيضاً وتقع في مجال العلم العقلي الذي هو شهود الحقائق فقط. حديث إنّ ما يدعم العلم الحسي هو المبادئ العامة وغير التجريبية التي يمكن تعليلها بالبرهان العقلي المحض. وإنّ وفق عارف للوصول إلى العلم القلبي وشهود المعارف ولم يستطع أن يجسّد شهود القلب في قالب البرهان العقلي وإن يجعلها في معرض أفكار الآخرين أو يجعل قلوب الآخرين تقبلها بالاستفادة من الإعجاز، فإنه ينجّي نفسه فقط. وليس من فرق في هذا بين العارف صاحب القلب والعابد صاحب السمع والزاهد صاحب النظر لا

البصر، ولا شكّ في أنّ الراحة الباطنية لصاحب القلب أكثر من الآخرين ولكنه لن يقدر أبداً على انقاذ الغريق.

ولهذا ليس القرآن الكريم وحده يعلّل الخطوط الأساسية للدين بل إن الرسول الأكرم (ص) مأمور ببيانها أيضاً، وهو يستدل على العلوم الإسلامية الأصلية في ضوء الاحتجاجات المختلفة وإن كان يستمد أحياناً من الإعجاز فيكون ذلك سبباً لإيوان الآخرين؛ ثم إنّ الإمامة المعصومين يستفيدون أيضاً من هاتين الطريقتين ليوفروا وسيلة علم السائلين والمتحيرين. وإذا أراد من هو ليس أهل كرامة أن يجعل الآخرين مؤمنين ولم يكن أهل برهان ويريد أن يعلمهم، وأن يكون إيمانهم عن طريق العلم ويقول بانفصال الدين عن العلم نتيجة لعجزة في العلم العقلي وفقه شهوده القلبي ويرى أنّه غير قابل للاستدلال فإن زمام الأمر سيفلت من يده ويقع في يد العلم الحسي القهار، وعندئذ سيشهد تخريب العلم الحسي المعتدي، ولن يملك وسيلة لردّ عدوانه، لذلك يلجأ إلى حربة الطعن واللّعن الهشّة لحلّ عقده النفسية وليس حلّ معضل الدين، وللتخلص من قلقه وليس لإزالة الشوك من طريق الإسلام، ويديرها حول رأسه فقط وهو ينشد أخاف أن يأخذوني أيضاً.

والآن للنظر إلى ذلك القائل بانفصال الدين عن العلم بمعنى أوسع ويعتقد بأنه غير قابل للتعليل. كيف وضع الاسلام بلا سلاح أمام عدوان العلم الحسي المهاجم، وكيف أزال رسمه أولاً ثمّ محاسمه وجعله نسياً منسياً.

إنّ العلم الحسي يقوم على تصوّر أنّ الشيء الذي لا يمكن الاحساس به ولا يحس به بالعين المجردة أو غير المجردة ليس له سهم في الوجود العيني، ولا وجود له في الخارج وهو جزء من التصورات الذهنية التي يملك كل شخص بدوره سهماً منها، ويصفها بشكل خاص وينمي في باطنه هذه الفتوى المشوّمة بالاعتقاد على مبادئه الخاصة وبالانكفاء على تقدّمه المادّي العظيم، ويقول بهذا الهجوم العقيم على الدين: بما أنّه لا يمكن الاحساس بمسائله، وليس لهذه المسائل صلاحية إبطال أو اثبات حسي فليست علمية وبالنتيجة لن

وقطع يد العلم الحسي عن التناول عليها، وتسليح الاسلام الحق والخالص بسلاح العقل والشهود، وإلقاء ظله على العلم الحسي، وتشجيع الجميع على تعلمه والاستفادة منه في مجال الطبيعة ويرى أن النظام الفاعلي والنظام الغائي ضروريان مع معرفة النظام السداسي، ويعتبر أسرار الطبيعة آيات الحق الآفاقية، والرموز النفسانية آيات الله الأنفسية، ويرى أن شهود ذات الله بمشاهدة ذات الحق نفسه كان قبل دراسة الآيات الآفاقية والأنفسية. ويعتبر الأفاذ الموحدين، شاهدين على وحدانية الله، كالملائكة.

وكما أشرنا في فصل رسالة القرآن في المعرفة، فإن القرآن الذي هو عصارة رسالة الانبياء لا يسعى فقط إلى أن يبرهن على معارف العقل النظري بإيراد الحدود الوسطى، ويوصل الناظرين إلى مقام درك المعاني العقلية، وإبلاغهم الاجتهاد بالاحتجاج... «ويشروا لهم دفائن العقول»^(٩٧)، بل يسعى بالإضافة إلى تعليم مبادئ البرهان واطهار نتائجها القطعية إلى رفع ستار الوهم عن عين القلب، وايصال الانسان الصالح السالك إلى مقام شهود الغيب المنيع، وازاءة باطن الأشياء ولا سيما باطن الدنيا التي تعتبر العلاقة بها رأسها كل خطيئة، وكذلك الكشف عن خصائص النفس الأمارة، التي هي أعدا عدو الانسان، واطهار خصومة الشيطان عدوه المبين ليزدهر ما يتلقاه من باطنه بالإلهام الإلهي: «و نفس وما سواها، فألمها فجورها وتقواها»^(٩٨) ليصبح عالماً يجهل، بل شاهداً، وعلاوة على ذلك ينكشف سر تطبيق الكوثر على القرآن الكريم، ذلك أن أي عطش ثقافي سيزول بتحطيم جدار حصر العلم ولا سيما التجريبي والحسي منه، أي أنه أولاً يروي أرض الأفكار الذائبة، وثانياً يغرس شجرة طوبى في تربة مناسبة مغمورة بالماء، وثالثاً: يقدم ثمرة تلك الشجرة اليانعة إلى السالكين، كما يقول الإمام علي بن أبي طالب (ع): «جعل الله ريباً لعطش العلماء وربيعاً لقلوب الفقهاء وتحاج لطرق الصلحاء ودواء ليس بعده داء، ونوراً ليس معه ظلمة... وبرهاناً لمن تكلم به... وعلماً لمن وعى...»^(٩٩). والتأمل في كلام الإمام المعصوم (ع) هذا يدل على أنه ليس لرسالة القرآن بُعد عقلي أو فقهني فقط

تكون عينية بل ذهنية حيث تتبع أذهاننا مختلفة في شروط مختلفة وبدون ضابطة علمية، أي إن مسألة أم الكتاب والكتاب المبين واللوح المحفوظ ونفس الأمر وأمثالها لا يمكن تصديقها والاعتقاد بتحققها خارج حدود الذهن وهي ظواهر ذهنية لأنها غير قابلة للاثبات الحسي أو الإبطال التجريبي.

وحيث أن الاسلام محصور بالانتقال من العين إلى الذهن ومن الخارج إلى صرف اللفظ والفهم، ولم يكن له مكان خارج فضاء الفهم والذهن، لذلك يبدو أمر آخر وهو أنه تحمل الاسلام بلا سلاح، وأن الظواهر الذهنية تابعة للظواهر العينية وليس لها وحدها أي نوع من الاستقلال، ولذلك تختلف في الشروط الزمانية والمكانية والاقليمية المختلفة، ولما كان مبدء وجود الظواهر الذهنية هو الحوادث العينية المتحولة، لذلك فإن الظواهر الذهنية لا تكون ثابتة أبداً، وبما أن الدين خاطرة ذهنية محضة فلا ثبات له وهو في تغير دائم.

وعلى هذا فإن الظواهر الخارجية محدودة ومقيدة وليست مطلقة والمحدود لا يكون سبباً لوجود المطلق، وبما أن الدين سبباً للظواهر المحدودة والمقيدة فلا يمكن أن يصبح مطلقاً. ولما كانت الظواهر العينية القائمة على أساس الجبر العلي والعلمي تحصل الواحدة بعد الأخرى بالضرورة، وليس من اختيار، لأي ظاهرة خارجية، فالدين الذين ينشأ عن ظواهر جبرية، ويظهر مثلها نتيجة لجبر البيئة والشروط الاقليمية، وهو في ثبوته وسقوطه مجبر، تبعاً لقهر الطبيعة وليس تبعاً للانسان الحر، وإنما يثبت في ذهنه بدون إرادته، ويرحل عنه دون طلبه.

وبناء على هذا فالدين أولاً أمر ذهني لا عيني، ثانياً: متغير وليس ثابتاً، وثالثاً: مقيد وليس مطلقاً، رابعاً: جبري وليس اختيارياً، وتقع حوادث أخرى إثر نزع سلاح الإسلام وهجوم العلم الحسي العشوائي.

ولن يكون معنى للختم وبقاء الشريعة وتنزهها عن نسخ الزوال واستمرار الحلال الإلهي على حاله وبقاء الحرام الديني على حاله، إن رسالة القرآن في الثقافة هي الفصل بين العلوم، وبيان معارفه الأصلية في محور العلم العقلي والشهود القلبي،

رسالة القرآن الكريم

فسيروي عطش العلماء العلمي أو أنه علاوة على إرواء أرض قلوب الباحثين يكتفي بتزيين القلوب بالثقافة فقط بل يسعى إلى أن ينتج في مزرعة القلب الناضرة فواكه العمل الصالح، و يبادر إلى السير والسلوك ليبين طريقة ورسم ارتباط العلم بالعمل. وكما جاء في وصف الكوثر أن من شرب منه لا يشعر بالعطش. فقد قيل عن القرآن الكريم أيضاً أن من يستفيد منه سيزدل عنه كل نوع من الأمراض والظلمات...

وأخيراً لابد من الإشارة إلى أن جميع رسالات القرآن التي تم شرح بعضها في الفصول الماضية يمكن تنفيذها في ظل التنسيق مع العترة الطاهرة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وإلا فإنه لا يمكن تحقيق أي هدف من هذه الأهداف السامية: بالوهم الباطل التمثل بحسبنا كتاب الله، وذلك حسبما ورد في حديث الثقلين عن الرسول الأكرم، أن هذين الوزنين العظيمين لا يمكن أن يفصلا في أية مرحلة من المراحل، وتوهم انفصال كل منهما عن الآخر كزعم تجزئة الشيء البسيط الذي يعتبر معادلاً لنفي أصل ذلك البسيط. يقول الإمام علي(ع) في ضرورة الرجوع إلى أهل بيت العصمة والطهارة(ع): «وأعلموا أنكم لن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذي تركه، ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه، ولن تمسكوا به حتى تعرفوا الذي نبذه، فالتمسوا ذلك من عند أهله(ع)». والرجاء أن تصبح قلوب الجميع مرتعاً للقرآن وأهل البيت(ع).

المصادر والهوامش:

- ١- سورة الإسراء (١٧)، الآية ٥٥.
- ٢- سورة البقرة (٢)، الآية ٢٥٣.
- ٣- سورة الممتل (٧٣)، الآية ٥.
- ٤- سورة المائدة (٥)، الآية ٤٨.
- ٥- سورة آل عمران (٣)، الآية ١٩.
- ٦- مفاتيح الجنان، دعاء ليلة البعثة.
- ٧- نهج البلاغة، الخطبة ١٤٧.
- ٨- سورة الشعراء (٢٦)، الآيات ١٧٣ - ١٧٤.
- ٩- سورة البقرة (٢)، الآية ٢٨٥.
- ١٠- سورة النساء (٤)، الآية ١٥٢.
- ١١- سورة الملك (٦٧)، الآية ٤٨.

- ١٢- سورة الروم (٣٠)، الآية ٣٠.
- ١٣- سورة الملك (٦٧)، الآية ١٤.
- ١٤- سورة الإنشقاق (٨٤)، الآية ٦.
- ١٥- سورة هود (١١)، الآية ٥٦.
- ١٦- سورة يونس (١٠)، الآية ٣٥.
- ١٧- سورة الأحزاب (٣٣)، الآية ٦.
- ١٨- سورة البقرة (٢)، الآية ١٢٠.
- ١٩- سورة فصلت (٤١)، الآية ٤٢.
- ٢٠- سورة البقرة (٢)، الآية ١٨٥.
- ٢١- سورة البقرة (٢)، الآية ٢.
- ٢٢- سورة الإسراء (١٧)، الآية ٩.
- ٢٣- سورة الإنسان (٧٦)، الآية ١.
- ٢٤- سورة الفجر (٨٩)، الآيات ٢٧، ٢٨، ٢٩ و ٣٠.
- ٢٥- سورة الرحمن (٥٥)، الآية ٢٩.
- ٢٦- سورة الأنفال (٨)، الآية ٢٩.
- ٢٧- أصول الكافي للشيخ يعقوب الكليني، باب حقيقة الإيهان واليقين.
- ٢٨- سورة الفرقان (٢٥)، الآية ١.
- ٢٩- سورة النازعات (٧٩)، الآية ٤٥.
- ٣٠- سورة فاطر (٣٥)، الآية ٢٨.
- ٣١- سورة آل عمران (٣)، الآية ١٨.
- ٣٢- سورة الأنعام (٦)، الآية ١١٦.
- ٣٣- سورة يونس (١٠)، الآية ٣٦.
- ٣٤- سورة والنجم (٥٣)، الآية ٢٣.
- ٣٥ و ٣٦- سورة البقرة (٢)، الآيات ٢ - ٤.
- ٣٧- سورة الأنعام (٦)، الآية ٧٥.
- ٣٨- سورة الأعراف (٧)، الآية ١٨٥.
- ٣٩- سورة الحجر (١٥)، الآية ٩٩.
- ٤٠- سورة التكاثر (١٠٢)، الآية ٥.
- ٤١- سورة آل عمران (٣)، الآية ٣١.
- ٤٢- نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٢.
- ٤٣- الصحيفة السجادية.
- ٤٤- سورة الحجرات (٤٩)، الآية ١٠.
- ٤٥ و ٤٦- سورة الممتحنة (٦٠)، الآيات ٨ - ٩.
- ٤٧- سورة التين (٩٥)، الآية ٤.
- ٤٨- سورة الإسراء (١٧)، الآية ٥٣.
- ٤٩- سورة البقرة (٢)، الآية ٨٣.
- ٥٠- سورة فصلت (٤١)، الآية ٣٤.
- ٥١- سورة النساء (٤)، الآية ١٩.
- ٥٢- سورة البقرة (٢)، الآية ٢٢٩.
- ٥٣- سورة الإسراء (١٧)، الآية ٢٣.
- ٥٤- سورة الحديد (٥٧)، الآية ٢٥.
- ٥٥- سورة المائدة (٥)، الآية ٨.

رسالة القرآن الكريم

- ٥٦ - سورة النساء (٤)، الآية ١٣٥.
 ٥٧ - سورة البقرة (٢)، الآية ١٧٩.
 ٥٨ - سورة الأنعام (٦)، الآية ١٦٥.
 ٥٩ - سورة الزخرف (٤٣)، الآية ٣٢.
 ٦٠ - سورة الحجرات (٤٩)، الآية ١١.
 ٦١ - سورة طه (٢٠)، الآية ٤٤.
 ٦٢ - سورة طه (٢٠)، الآية ٧٨.
 ٦٣ - سورة آل عمران (٣)، الآية ١٥٩.
 ٦٤ و ٦٥ - سورة الشعراء (٢٦)، الآيتان ٢١٥ و ٢١٦.
 ٦٦ - سورة الإسراء (١٧)، الآية ٢٥.
 ٦٧ - سورة الحجرات (٤٩)، الآية ١٢.
 ٦٨ - سورة الصافات (٣٧)، الآية ٦.
 ٦٩ - سورة الكهف (١٨)، الآيتان ٧-٨.
 ٧٠ - سورة الحجرات (٤٩)، الآية ٧.
 ٧١ - سورة الفجر (٨٩)، الآية ٢٠.
 ٧٢ و ٧٣ - سورة العاديات (١٠٠)، الآية ٨.
 ٧٤ - نهج البلاغة، الخطبة ١٦١.
 ٧٥ - سورة الحشر (٥٩)، الآية ٧.
 ٧٦ - نهج البلاغة، الخطبة ٣.
 ٧٧ - سورة الفجر (٨٩)، الآيتان ١٥-١٦.
 ٧٨ - فروع الكافي، كتاب المعيشة، باب الإستعانة بالدنيا على الآخرة.
 ٧٩ - سورة النساء (٤)، الآية ١٧٤.
 ٨٠ - سورة الأنعام (٦)، الآية ٩١.
 ٨١ - سورة إبراهيم (١٤)، الآية ١.
 ٨٢ - سورة البقرة (٢)، الآية ٢٥٧.
 ٨٣ - سورة الحديد (٥٧)، الآية ٢٨.
 ٨٤ - سورة إبراهيم (١٤)، الآية ٥.
 ٨٥ - نهج البلاغة، الكلمات القصار.
 ٨٦ - نهج البلاغة، الرسالة ٣.
 ٨٧ - سورة النساء (٤)، الآية ٥٩.
 ٨٨ - نهج البلاغة، الرسالة ٥٣.
 ٨٩ و ٩٠ - سورة المائدة (٥)، الآية ٣.
 ٩١ - سورة الصّٰف (٦١)، الآية ٩.
 ٩٢ - سورة العاقر (٤٠)، الآية ٢٦.
 ٩٣ - سورة البقرة (٢)، الآية ٧٩.
 ٩٤ - سورة التوبة (٩)، الآية ٢٩.
 ٩٥ - سورة الأنفال (٨)، الآية ٣٩.
 ٩٦ - سورة البقرة (٢)، الآية ١٥١.
 ٩٧ - نهج البلاغة، الخطبة الأولى.
 ٩٨ - سورة الشمس (٩١)، الآيتان ٧-٨.
 ٩٩ - نهج البلاغة، الخطبة ١٩٨.